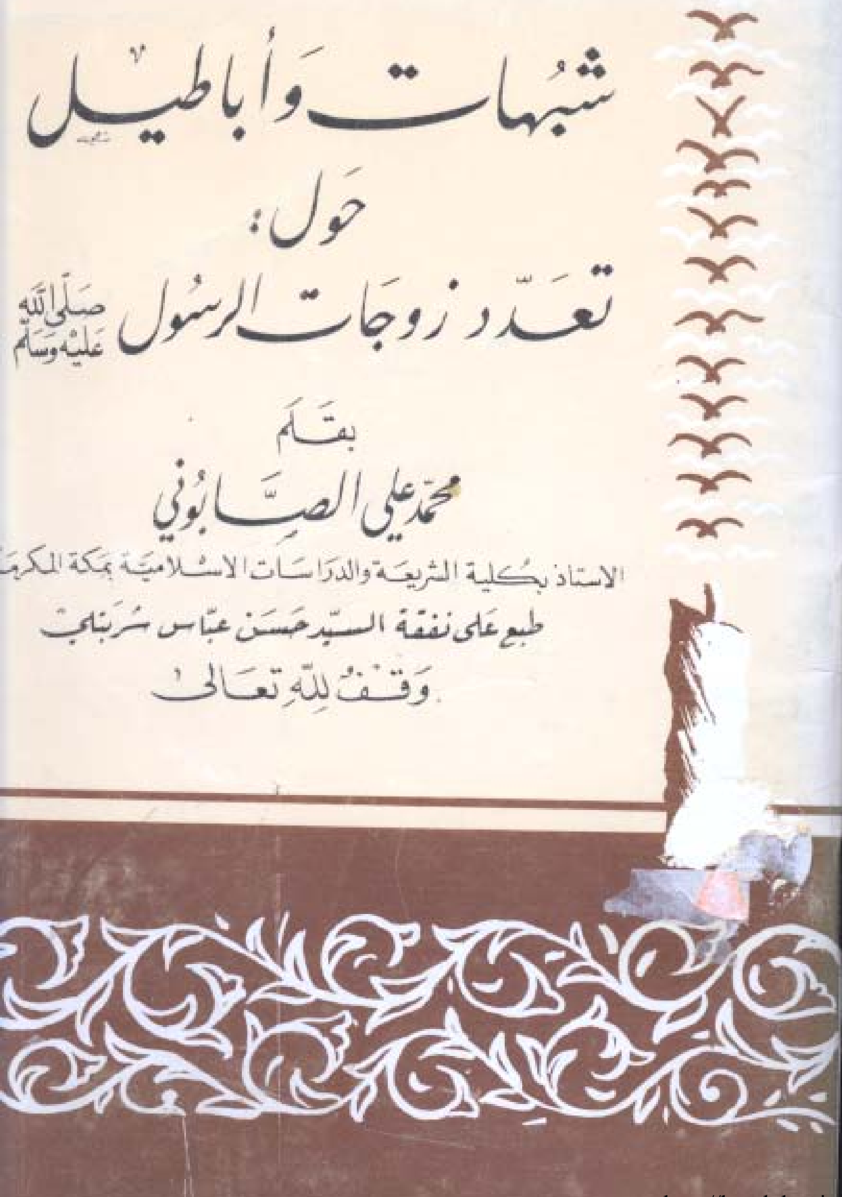


شبهات وأباطيل
حول:
تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم
بقلم
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة
طبع على نفقة السيد حسن عباس شربتلي
وقف لله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله ونصلي ونسلم على صفوة خلقه ، سيدنا محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

أحييكم بتحية الإسلام ، تحيةً من عند الله مباركة طيبة ، وأسأله تعالى أن يجمع قلوبنا على محبته ومرضاته وأن يهبنا التوفيق والإخلاص ، والسداد في القول

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في مقر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة على وفود الحجيج يوم الاثنين غرة شهر ذي الحجة/ ١٣٩٠ / هجرية

والعمل، ويرزقنا كمال الإيمان، وصدق اليقين، إنه سميع مجيب الدعاء .

أيها الإخوة الأفاضل :

أفرأيتم إلى الشمس الساطعة اللامعة، وسط النهار لا يحجبها حجاب، ولا يسترها سحاب أو ضباب، فلو أنَّ إنساناً أراد أن يطفىء نورها، أو يحجب ضياءها عن الأبصار، فنفخ بفمه عليها، أو جاء بعباءته فمدَّها إليها، فهل يذهب النور، أو يحجب الضياء ..؟؟

لا .. لا .. فكذلك شمسنا التي سنتحدث عنها في هذه الأمسية الكريمة .

لن نتحدث لكم - أيها السادة - عن شمس السماء.. وإنما سنتحدث عن شمس الأرض !.

ولن نتكلم عن الشمس المحرقة .. وإنما سنتكلم عن الشمس المشرقة .. فهل عرفتم هذه الشمس ؟.

إنها شمس «النبوَّة» .. شمس «الرسالة» .. شمس «الهداية» والعرفان .. إنها الضياء اللامع، والنور الساطع والسراج المنير، الذي بدَّد الله به شقاء الحياة، وأَخرج الناس من الظلمات إلى النور .. إنها «الذات المحمدية» ذات النبي الكريم، عليه أَفضل الصلاة والتسليم .. وصدق الله حيث يقول:

«يُريدون ليُطفئوا نور اللهِ بأَفواههمْ، والله مُتمُّ نورهِ ولو كرِه الكافرُون. هو الذي أَرسل رسوله بالهدى ودينِ الحق، ليُظهرهُ على الدِّينِ كلِّه ولو كرِهَ المشْرِكونَ»

هذه هي شمس الأَرض، التي سيكون حديثنا عنها في هذه الأمسية، والتي تحدَّث عنها القرآن الكريم، بهذا الوصف الرائع الجامع: «يا أَيُّها النبِيُّ إنَّا أَرْسلنَاكَ شاهِدًا، ومُبشرًا، ونذِيرًا. وداعِياً إلى اللهِ بإِذنِهِ وسِراجاً مُنيرًا» وما السراج المنير إلا «شمس النبوَّة» التي أَشرقت بضيائها وبهائها، وأَطلَّت على الكون بنورها

الوهاج ، فأبصرها أولو البصائر ، وأنكرها العمي والعور..
ولله در القائل حيث يقول :

«وشمسُنا في سماءِ العِزِّ ساطعةٌ
ما ضرَّها حينَ تَعْمى عندَهَا العُورُ»

• • •

لقد درج أعداء الإسلام منذ القديم ، على التشكيك في نبي الإسلام ، والطعن في رسالته والنيل من كرامته ، ينتحلون الأكاذيب والأباطيل ، ليشككوا المؤمنين في دينهم .. ويبعدوا الناس عن الإيمان برسالته ﷺ .. ولا عجب أن نسمع مثل هذا البهتان والإفتراء والتضليل في حق الأنبياء والمرسلين ، فتلك سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .. وصدق الله حيث يقول :

« وكذلكَ جعلنا لكُلِّ نبيٍّ عَدُوًّا من المجْرمينَ ، وكَفَى بربِّكَ هادِياً ونصِيرًا » . وقبل أن نتحدث عن « أمهات

المؤمنين » الطاهرات ، وحكمة الزواج بهن نحب أن نردَّ على شبهة سقيمة ، طالما أثارها كثير من الأعداء .. من الصليبيين الحاقدين ، والغربيِّين المتعصبين .

ردَّدوها كثيرًا ليفسدوا بها العقائد ، ويطمسوا بها الحقائق .. ولينالوا من صاحب الرسالة العظمى محمد ابن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه .

إنهم يقولون :

« لقد كان محمد رجلًا شهوانياً .. يسير وراء شهواته وملذاته .. ويمشي مع هواه .. لم يكتف بزوجةٍ واحدة أَو بأَربع ، كما أَوجب على أتباعه .. بل عدَّد الزوجات فتزوَّج عشر نسوةٍ أَو يزيد ، سيرًا مع الشهوة ، وميلًا مع الهوى .!

كما يقولون ايضاً :

« فرقٌ كبير وعظيم ، بين « عيسى » وبين « محمد »

فرقٌ بين من يغالب هواه، ويجاهد نفسه كعيسى بن مريم، وبين من يسير مع هواه، ويجري وراء شهواته كمحمد «كَبُرَتْ كَلِمَةً تخرجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إنْ يقولونَ إلَّا كَذِباً».

حقاً إنهم لحاقدون كاذبون .. فما كان «محمد» عليه الصلاة والسلام، رجلًا شهوانياً.. إنما كان رسولاً إنسانياً .. تزوَّج كما يتزوَّج البشر، ليكون قدوة لهم في سلوك الطريق السوي .. وليس هو إلهاً ولا ابن إله – كما يعتقد النصارى في نبيهم – إنَّما هو بشر مثلهم، فضَّله الله عليهم بالوحي، والرسالة «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحى إليَّ».

ولم يكن صلوات الله وسلامه عليه بِدْعاً من الرسل، حتى يخالف سنتهم، أو ينقض طريقتهم، فالرسل الكرام قد حكى القرآن عنهم بقول الله جلَّ وعلا:

« ولقَدْ أَرسلنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ، وجَعلنا لهمْ أَزْوَاجاً وذُرِيَّةً .. » .

فعلام إِذًا يثيرون هذه الزوابع الهوجاءَ في حقِّ خاتم النبيِّين عليه الصلاة والسلام ؟ ولكن كما يقول القائل :

« قد تنكرُ العينُ ضوءَ الشمس من رَمَد
وينكرُ الفمُ طعمَ الماء من سَقَم »

وصدق الله حيث يقول :

« فإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ، ولكِنْ تَعْمَى القُلوبُ التي في الصدُور » .

أيها الإخوة الأفاضل :

هناك نقطتان جوهريتان ، تدفعان الشبهة عن النبي الكريم ، وتُلقمان الحجر لكل مفتر أثيم .. يريد أن ينال من صاحب الرسالة محمد بن عبدالله يجب أَلَّا نغفُل عنهما ، وأن نضعهما نُصْب أعيننا حين نتحدث عن أُمهات

المؤمنين ، وعن حكمة تعدُّد زوجاته الطاهرات رضوان الله عليهن أَجمعين .

هاتان النقطتان هما :

أولاً : لم يعدِّد الرسول الكريم ﷺ زوجاته إلا بعد بلوغه سن الشيخوخة ، أَي بعد أَن جاوز من العمر الخمسين .

ثانياً : جميع زوجاته الطاهرات ثيبات « أَرامل » ما عدا السيدة عائشة رضي الله عنها فهي بكر ، وهي الوحيدة من بين نسائه التي تزوجها ﷺ وهي في حالة الصبا والبكارة .

ومن هاتين النقطتين ندرك ـ بكل بساطة ـ تفاهة هذه التهمة ، وبطلان ذلك الادعاء ، الذي أَلصقه به المستشرقون الحاقدون .

فلو كان المراد من الزواج الجريَ وراءَ الشهوة ، أَو

السيرَ مع الهوى، أَو مجَّردَ الاستمتاع بالنساء، لتزوَّجَ في سنٍّ «الشباب» لا في سنٍّ «الشيخوخة» ولتزوج الأَبكار الشابات، لا الأَرامل المسنَّات .. وهو القائل لجابر بن عبد الله حين جاءه وعلى وجهه أَثر التطيب والنعمة:

«هل تزوجت؟ قال: نعم .. قال: بكرًا أَم ثيباً؟ قال: بل ثيباً .. فقال له صلوات الله عليه: فهلَّا بكرًا تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك؟

فالرسول الكريم أَشار عليه بتزوج البكر، وهو عليه السلام يعرف طريق (الاستمتاع) وسبيل (الشهوة) فهل يعقل أَن يتزوج الأَرامل ويترك الأَبكار، ويتزوج في سنِّ الشيخوخة، ويترك سنِّ الصِّبا، إذا كان غرضه الاستمتاع والشهوة؟!

إنَّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يفدون رسول

الله ﷺ بمُهَجهم وأَرواحهم ، ولو أَنه طلب الزواج لما تأَخر أَحد منهم عن تزويجه بمن شاءَ من الفتيات الأَبكار الجميلات ، فلماذا لم يعدد الزوجات في مقتبل العمر ، وريعان الشباب ؟ ولماذا ترك الزواج بالأَبكار ، وتزوَّج الثيبات ؟

إنَّ هذا – بلا شك – يدفع كل تقوُّل وافتراءٍ .. ويدحض كل شبهة وبهتان ويردُّ على كل أَفَّاك أَثيم ، يريد أَن ينال من قدسيَّة الرسول ، أَو يشوِّه سمعته الطاهرة. فما كان زواج الرسول بقصد « الهوى » أَو « الشهوة » وإنما كان لحِكم جليلة ، وغايات نبيلة ، وأَهداف سامية سوف يقر الأَعداءُ بنبلها وجلالها ، إذا ما تركوا التعصب الأَعمى ، وحكَّموا منطق العقل والوجدان .. وسوف يجدون في هذا الزواج « المثل الأَعلى » في الإِنسان الفاضل الكريم ، والرسول النبي الرحيم ، الذي يضحِّي براحته

في سبيل مصلحة غيره، وفي سبيل مصلحة الدعوة والإسلام .

أيها الإخوة الافاضل :

إن الحكمة من «تعدّد زوجات الرسول» ﷺ كثيرة ومتشعبة، ويمكننا أن نجملها فيما يلي :

أولاً : الحكمة التعليمية .

ثانياً : الحكمة التشريعية .

ثالثاً : الحكمة الإجتماعية .

رابعاً : الحكمة السياسية .

ولنتحدث باختصار عن كلٍ من هذه الحِكَم الأَربع، ثم نُعْقبها بالحديث عن أمهات المؤمنين الطاهرات، وحكمة الزواج بكل واحدة منهن استقلالاً فنقول ومن الله نستمد العون .

أولاً : الحكمة التعليمية :

لقد كانت الغاية الأَساسية من تعدد زوجات الرسول

ﷺ هي تخريج بضع معلمات للنساء، يعلمنهن الأَحكام الشرعية .. فالنساءُ نصيف المجتمع، وقد فُرِضَ عليهن من التكاليف ما فرض على الرجال ..

وقد كان الكثيرات منهن يستحيين من سؤال النبي ﷺ عن بعض الأُمور الشرعية، وخاصة المتعلقة بهن، كأَحكام الحيض والنفاس، والجنابة والأُمور الزوجية، وغيرها من الأَحكام، وقد كانت المرأَة تغالب حياءها حينما تريد أَن تسأَل الرسول الكريم عن بعض هذه المسائل ..

كما كان من خلق الرسول ﷺ الحياءُ الكامل، وكان – كما تروي كتب السُّنَّة – أَشدَّ حياءً من العذراءِ في خدرها .. فما كان عليه الصلاة والسلام يستطيع أَن يجيب عن كل سؤالٍ يعرض عليه من جهة النساءِ بالصراحة الكاملة، بل كان يكنِّي في بعض الأَحيان،

ولربما لم تفهم المرأة عن طريق «الكناية» مراده عليه السلام ..

تروي السيدة عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار، سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فعلَّمها ﷺ كيف تغتسل، ثمَّ قال لها: خذي فرصة ممسَّكةً «أي قطعة من القطن بها أثر الطيب» فتطهَّري بها .. قالت: كيف أتطهر بها ؟ قال: تطهَّري بها، قالت : كيف يا رسول الله أتطهر بها ؟ فقال لها: سبحان الله تطهَّري بها ..!

قالت السيدة عائشة: فاجتذبتها من يدها، فقلت: ضعيها في مكان كذا وكذا، وتتبعي بها أثر الدم، وصرحت لها بالمكان الذي تضعها فيه .

فكان صلوات الله عليه يستحيي من مثل هذا التصريح وهكذا كان القليل أيضاً من النساءِ من تستطيع أن

تتغلّب على نفسها، وعلى حيائها، فتجاهر النبي ﷺ بالسؤال عمّا يقع لها .

نأخذ مثلًا لذلك حديثَ (أُم سلمة) المرويّ في الصحيحين وفيه تقول :

«جاءت أُم سُلَيْم (زوجُ أَبي طلحة) إلى رسول الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله إنَّ الله لا يستحيي من الحق .. هل على المرأة من غُسْل إذا هي احتلمت ؟ فقال لها النبي ﷺ : نعم إذا رأت الماءَ .

فقالت أَم سلمة : لقد فضحتِ النساءَ، ويحَكِ أَو تحتلم المرأة ؟ فأَجابها النبي الكريم بقوله : إذًا فبم يشبهها الولد ؟

مراده عليه السلام أَن الجنين يتولد من ماء الرجل، وماء المرأة، ولهذا يأْتي له شبه بأمه، وهذا كما قال الله تعالى :

« إِنَّا خَلَقنَا الإِنسان من نُطْفةٍ أَمشَاجٍ نبْتليهِ ، فجعلناهُ سميعاً بصيرًا » .

قال ابن كثير رحمه الله :

« أمشاج : أَي أَخلاط ، والمشج والمشيج الشيءُ المختلط بعضه في بعض .. قال ابن عباس : يعني ماءَ الرجل ، وماءَ المرأَة ، إِذا اجتمعا واختلطا .. » .

وهكذا مِثْلُ هذه الأَسئلة المحرجة ، كان يتولى الجواب عنها فيما بعد زوجاتُه الطاهرات .. ولهذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها :

« رحم الله نساءَ الأَنصار ، ما منعهن الحياءُ أَن يتفقهن في الدين » .

وكانت المرأَة منهن تأْتي إلى السيدة عائشة في الظلام لتسأَلها عن بعض أُمور الدين ، وعن أَحكام الحيض والنفاس والجنابة وغيرها من الأَحكام ، فكان

نساءُ الرسول خيرَ معلِّمات وموجهات لهن ، وعن طريقهن تفقَّه النساءُ في دين الله .

ثمَّ إنه من المعلوم أَنَّ السنَّة المطهَّرة ليست قاصرة على قول النبي ﷺ فحسب ، بل هي تشمل قوله ، وفعله ، وتقريره .. وكل هذا من التشريع الذي يجب على الأُمَة اتباعه ، فمن ينقل لنا أَخبارَه وأَفعالَه عليه السلام في المنزل غيرُ هؤلاء النسوة اللواتي أَكرمهن الله فكنّ أَمهات للمؤمنين ، وزوجاتٍ لرسوله الكريم في الدنيا والآخرة ؟ .

لا شك أَن لزوجاته الطاهرات رضوان الله عليهن أَكبر الفضل في نقل جميع أَحواله وأَطواره ، وأَفعاله المنزلية عليه أَفضل الصلاة والتسليم .

ولقد أَصبح من هؤلاءِ الزوجات معلِّمات ومحدثات نقلن هديه عليه السلام، واشتهرن بقوة الحفظ والنبوغ والذكاء .

ثانياً : الحكمة التشريعية .

ونتحدث الآن عن (الحكمة التشريعية) التي هي جزء من حكمة تعدد زوجات الرسول ﷺ ، وهذه الحكمة ظاهرة تدرك بكل بساطة ، وهي أنها كانت من أجل إبطال بعض العادات الجاهلية المستنكرة ، ونضرب مثلًا (بدعة التبني) التي كان يفعلها العرب قبل الإسلام ، فقد كانت ديناً متوارثاً عندهم ، يتبنَّى أحدهم ولدًا ليس من صلبه ، ويجعله في حكم الولد الصلبي ، ويتخذه ابناً حقيقياً له حكم الأَبناءِ من النسب في جميع الأَحوال ، في الميراث ، والطلاق ، والزواج ، ومحرمات المصاهرة ، ومحرمات النكاح ، إلى غير ما هنالك مما تعارفوا عليه وكان ديناً تقليدياً متبعاً في الجاهلية .

كان الواحد منهم يتبنى ولد غيره فيقول له : «أنت ابني ، أَرثك وترثني » .

وما كان الإسلام ليقرّهم على باطل، ولا ليتركهم يتخبّطون في ظلمات الجهالة، فمهّد لذلك بأَن أَلهم رسوله عليه السلام أَن يتبنى أَحد الأَبناءِ - وكان ذلك قبل البعثة النبوية - فتبنَّى عليه السلام (زيد بن حارثة) على عادة العرب قبل الإسلام.

وفي سبب تبنِّيه قصة من أَروع القصص، وحكمة من أَروع الحِكَم، ذكرها المفسّرون وأَهل السير، لا يمكننا الآن ذكرُها لعدم اتساع المجال .. وهكذا تبنَّى النبي الكريم (زيد بن حارثة) وأَصبح الناس يدعونه بعد ذلك اليوم (زيد بن محمد).

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَنه قال:

«إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن «أُدعوهُمْ

لآبائهم هو أَقسطُ عند الله » فقال النبي ﷺ : أنت زيد بن حارثة بن شراحيل » .

وقد زوّجه عليه السلام بابنة عمته (زينب بنت جحش الأَسدية) وقد عاشت معه مدةً من الزمن ، ولكنها لم تطل فقد ساءت العلاقات بينهما ، فكانت تغلظ له القول ، وترى أنها أَشرف منه ، لأَنه كان عبدًا مملوكاً قبل أَن يتبناه الرسول ، وهي ذات حسبٍ ونسب .

ولحكمة يريدها الله طلَّق زيد زينب ، فأَمر الله رسوله أَن يتزوجها ليبطل (بدعة التبني) ويقيم أُسس الإِسلام ، ويأْتي على الجاهلية من قواعدها .

ولكنه عليه السلام كان يخشى من أَلسنة المنافقين والفجّار ، أَن يتكلموا فيه ويقولوا : تزوج محمد امرأَة ابنه ، فكان يتباطأُ حتى نزل العتاب الشديد لرسول الله عليه السلام في قوله جلَّ وعلا :

«وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه، فلمّا قضى زيدٌ منها وطرًا زوجْناكَها لكيلا يكونَ على المؤمنينَ حرجٌ في أزواج أدعيائِهمْ إذا قَضوا منهنَّ وطرًا، وكان أمر الله مفعولًا».

وهكذا انتهى حكم التبني، وبطلت تلك العادات التي كانت متبعةً في الجاهلية، وكانت ديناً تقليدياً لا محيد عنه، ونزل قوله تعالى مؤكدًا هذا التشريع الإلهي الجديد: «ما كان محمدٌ أبا أحدٍ مِنْ رجالكُم، ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتم النبيّين، وكان الله بكل شيءٍ عليماً».

وقد كان هذا الزواج بأمر من الله تعالى، ولم يكن بدافع الهوى والشهوة، كما يقول بعض الأفّاكين المرجفين من أعداءِ الله، وكان لغرضٍ نبيل، وغاية شريفة هي إبطال عادات الجاهلية، وقد صرّح الله عز وجل بغرض هذا الزواج بقوله «لكيلا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرًا ..».

روى البخاري بسنده أَن (زينب) رضي الله عنها كانت تفخر على أَزواج النبي ﷺ وتقول: زوجكُنَّ أَهاليكنَّ، وزوّجني الله من فوق سبع سموات .

وهكذا كان هذا الزواج للتشريع ، وكان بأَمر الحكيم العليم ، فسبحان من دقت حكمته أَن تحيط بها العقول والأَفهام وصدق الله «وما أُوتيتُم منَ العلم إلا قليلًا» .

ثالثاً : الحكمة الإجتماعية :

أَما الحكمة الثالثة فهي «الحكمة الاجتماعية» وهذه تظهر بوضوح في تزوج النبي ﷺ بابنة الصدّيق الأَكبر (أَبي بكر) رضي الله عنه وزيره الأَول .. ثمَّ بابنة وزيره الثاني الفاروق (عمر) رضي الله عنه وأَرضاه .. ثمَّ باتصاله عليه السلام بقريش اتصال مصاهرة ونسب ، وتزوجه العديد منهن ، ممّا ربط بين هذه البطون والقبائل برباط وثيق ، وجعل القلوب تلتف حوله وتلتقي حول دعوته في إيمان ، وإكبار ، وإجلال .

لقد تزوّج النبي صلوات الله عليه بالسيدة (عائشة) بنتِ أَحبِّ الناس إليه ، وأَعظمهم قدرًا لديه ، أَلا وهو أَبو بكر الصدّيق ، الذي كان أَسبق الناس إلى الإسلام ، وقدّم نفسه وروحه وماله ، في سبيل نصرة دين الله ، والذود عن رسوله ، وتحمّلَ ضروب الأَذى في سبيل الإسلام ، حتى قال عليه السلام ـ كما في الترمذي ـ مُشيدًا بفضل أَبي بكر :

« ما لأَحد عندنا يدٌ إلاَّ وقد كافيناه بها ، ما خلا أَبا بكر ، فإنَّ له عندنا يدًا يكافيه الله تعالى بها يوم القيامة .. وما نفعني مال أَحدٍ قط ما نفعني مال أَبي بكر . وما عرضتُ الإسلام على أَحدٍ إلاَّ كانت له كبوة (أَي تردد وتلكؤ) إلا أَبا بكر فإنه لم يَتَلَعْثَم ، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أَبا بكر خليلًا ، أَلا وإن صاحبكم خليل الله تعالى » . (رواه الترمذي) .

فلم يجد الرسول ﷺ مكافأَة لأَبي بكر في الدنيا ،

أَعظم من أَن يقر عينه بهذا الزواج بابنته ، ويصبح بينهما (مصاهرة) وقرابة ، تزيد في صداقتهما وترابطهما الوثيق .

كما تزوّج صلوات الله عليه بالسيدة (حفصة بنت عمر) فكان ذلك قرّة عين لأَبيها عمر على إسلامه ، وصدقه ، وإخلاصه ، وتفانيه في سبيل هذا الدين ، وعمر هو بطل الإسلام ، الذي أَعزَّ الله به الإِسلام والمسلمين ، ورفع به منار الدين ، فكان اتصاله عليه السلام به عن طريق المصاهرة ، خيرَ مكافأَة له على ما قدّم في سبيل الإسلام ، وقد ساوى ﷺ بينه وبين وزيره الأَول أَبي بكر في تشريفه بهذه المصاهرة .. فكان زواجه بابنتيهما أَعظم شرفٍ لهما ، بل أَعظم مكافأَة ومنَّة ، ولم يكن بالإِمكان أَن يكافئهما في هذه الحياة بشرف أَعلى من هذا الشرف ، فما أَجلَّ سياسته ؟ وما أَعظم وفاءه للأَوفياء المخلصين .

كما يقابلُ ذلكَ إكرامَه لعثمان وعلي رضي الله عنهما بتزويجهما ببناته .. وهؤلاء الأَربعة هم أعظم أَصحابه ، وخلفاوُه من بعده في نشر ملته ، وإقامة دعوته ، فما أَجلّها من حكمة ، وما أَكرمها من نظرة ؟

رابعاً : الحكمة السياسية :

لقد تزوج النبي ﷺ ببعض النسوة ، من أَجل تأليف القلوب عليه ، وجمع القبائل حوله .. فمن المعلوم أَنَّ الإنسان إذا تزوّج من قبيلة ، أَو عشيرة ، يصبح بينه وبينهم قرابة و (مصاهرة) وذلك بطبيعته يدعوهم إلى نصرته وحمايته ، ولنضرب بعض الأَمثلة على ذلك لتتضّح لنا الحكمة ، التي هدف إليها الرسول الكريم من وراءِ هذا الزواج .

أولًا : تزوّج صلوات الله عليه بالسيدة (جويرية بنت الحارث) سيّد بني المصطلق ، وكانت قد أُسِرت مع قومها وعشيرتها ، ثمَّ بعد أَن وقعت تحت الأَسر ،

أرادت أن تفتدي نفسها ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تستعينه بشيء من المال ، فعرض عليها الرسول الكريم أن يدفع عنها الفداء وأن يتزوج بها فقبلت ذلك فتزوجها فقال المسلمون : أصهار رسول الله ﷺ تحت أيدينا ؟ (أي أنهم في الأسر) فأعتقوا جميع الأسرى الذين كانوا تحت أيديهم ، فلما رأى بنو المصطلق هذا النبل والسمو ، وهذه الشهامة والمروءة أسلموا جميعاً ، ودخلوا في دين الله ، وأصبحوا من المؤمنين .

فكان زواجه ﷺ بها بركة عليها وعلى قومها وعشيرتها ، لأنه كان سبباً لإسلامهم وعتقهم ، وكانت « جويرية » أيمن امرأةٍ على قومها .

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

« أصاب رسولُ الله ﷺ نساءَ بني المصطلق ، فأخرج

الخُمُس منه ثمّ قسمه بين الناس ، فأَعطى الفرس سهمين والرجل سهماً ، فوقعت (جويرية بنت الحارث) في سهم ثابت بن قيس ، فجاءَت إلى الرسول فقالت : يا رسول الله أَنا جويرية بنت الحارث سيّد قومه ، وقد أَصابني من الأَمر ما قد علمتَ ، وقد كاتبني ثابت على تسع أَواق ، فأَعنّي على فكاكي ، فقال عليه السلام : أَو خير من ذلك ؟ فقالت : ما هو ؟ فقال : أُؤَدي عنك كتابَتَكِ وأَتزوجُك .. فقالت : نعم يا رسول الله. فقال رسول الله : قد فعلت » .

وخرج الخبر إلى الناس فقالوا : أَصهار رسول الله يُسْترقُون ؟ فأَعتقوا ما كان في أَيديهم من سَبي بني المصطلق ، فبلغ عتقُهم مائةَ بيت ، بتزوجه عليه السلام بنتَ سيدِ قومه .

٢ – وكذلك تزوج ﷺ بالسيدة (صفية بنت حُيَيٍّ بن أَخطب) التي أُسرت بعد قتل زوجها في (غزوة

خيبر) ووقعت في سهم بعض المسلمين ، فقال أَهل الرأي والمشورة : هذه سيدة بني قريظة ، لا تصلح إلْا لرسول الله ﷺ فعرضوا الأَمر على الرسول الكريم ، فدعاها وخيّرها بين أَمرين :

ا ـ إمّا أَن يعتقها ويتزوجها عليه السلام فتكون زوجة له .

ب ـ وإمّا إن يُطْلِقَ سراحها فتلحق بأَهلها .

فاختارت أَن يعتقها وتكون زوجة له ، وذلك لما رأَته من جلالة قدره ، وعظمته ، وحسن معاملته ، وقد أَسلمت وأَسلم بإِسلامها عدد من الناس .

روى أَن (صفية) رضي الله عنها لما دخلت على النبي ﷺ قال لها : لم يزل أَبوك من أَشدّ اليهود لي عداوة حتى قتله الله .. فقالت يا رسول الله : إن الله يقول في كتابه : (ولا تِزرُ ووازِرةٌ وِزْرَ أُخرى) .

فقال لها الرسول الكريم : اختاري ، فإن اخترت الإسلام أَمسكتك لنفسي ، وإن اخترت اليهودية فعسى أَن أَعتقك فتلحقي بقومك ، فقالت يا رسول الله : لقد هَويتُ الإسلام ، وصدّقتُ بك قبل أَن تدعوني إلى رَحْلك ، ومالي في اليهودية أَرَب ، ومالي فيها والد ولا أَخ ، وخيَّرتني الكفرَ والإسلامَ ، فالله ورسولُه أَحبُّ إليَّ من العِتْق ، وأَن أَرجع إلى قومي ، فأَمسكها رسول الله ﷺ لنفسه .

٣ ـ وكذلك تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة أَم حبيبة (رملة بنت أَبي سفيان)وأَبو سفيان كان في ذلك الحين حامل لواءِ الشرك ، وأَلدّ الأَعداءِ لرسول الله ﷺ وقد أَسلمت ابنته في مكة ، ثمَّ هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فرارًا بدينها ، وهناك مات زوجها فبقيت وحيدة فريدة ، لا معين لها ولا أَنيس ، فلما علم الرسول الكريم بأَمرها أَرسل إلى (النجاشي) ملكِ الحبشة ليزوجه إيّاها

فأبلغها النجاشي ذلك فسُرَّت سرورًا لا يعرف مقداره إلا الله سبحانه ، لأنها لو رجعت إلى أبيها أو أهلها لأجبروها على الكفر والردة ، أو عذَّبوها عذاباً شديدًا ، وقد أصدقها عنه أربعمائة دينار مع هدايا نفيسة ، ولما عادت إلى المدينة المنورة تزوجها النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام .

ولما بلغ (أبا سفيان) الخبرُ أقرّ ذلك الزواج وقال « هو الفحل لا يُقدع أنفُه » فافتخر بالرسول ولم ينكر كفاءته له ، إلى أن هداه الله تعالى للإسلام .

ومن هنا تظهر لنا الحكمة الجليلة في تزوجه عليه السلام بابنة أبي سفيان ، فقد كان هذا الزواج سبباً لتخفيف الأذى عنه وعن أصحابه المسلمين ، سيّما بعد أن أصبح بينهما نسب وقرابة ، مع أن أبا سفيان كان وقت ذاك من ألدّ بني أمية خصومة لرسول الله ، ومن أشدّهم عداء له وللمسلمين ، فكان تزوجه بابنته سبباً

لتأليف قلبه وقلب قومه وعشيرته .. كما أنه ﷺ أَختارها لنفسه تكريماً لها على إيمانها لأَنها خرجت من ديارها فارة بدينها ، فما أَكرمها من سياسة ، وما أَجلها من حكمة ؟ ؟

● ● ●

وبعد أَن تحدثنا عن حكمة تعدد زوجات الرسول نتحدث الآن عن (أَمهات المؤمنين) الطاهرات رضوان الله تعالى عليهن ، فقد اختارهنّ الله لحبيبه المصطفى ﷺ وأَكرمهن بهذا الشرف العظيم ، شرف الانتساب إلى سيد المرسلين ، واختارهن من صفوة النساءِ ، وجعلهن أمهات المؤمنين ، في وجوب الإحترام والتعظيم ، وفي حرمة الزواج بهن حتى بعد وفاته عليه السلام تكريماً لرسوله فقال وهو أَصدق القائلين :

«النبيُّ أَولى بالمؤمنينَ من أَنفسهم، وأَزواجُه أُمهاتُهم»

وقال تعالى: «وما كانَ لكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رسولَ اللهِ، ولا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْده أَبدًا، إنَّ ذلكم كان عند الله عظيماً».

قال العلامة القرطبي في تفسيره (الجامع لأَحكام القرآن) ما نصه:

«شرّف الله تعالى أزواج نبيه ﷺ، بأَن جعلهن أُمهات للمؤمنين، أَي في وجوب التعظيم، والمبرّة، والإجلال، وحرمة النكاح على الرجال، فكان ذلك تكريماً لرسوله، وتشريفاً لهن..».

• • •

وأمهات المؤمنين اللواتي تزوجهن الرسول الكريم، يزيد عددهن على عشر نسوة وهنّ كالآتي:

أَولًا: السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ثانياً: السيدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها.

ثالثاً : السيدة عائشة بنت أَبي بكر الصدّيق رضي الله عنها.

رابعاً : السيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

خامساً : السيدة زينب بنت جحش الأَسدية رضي الله عنها.

سادساً : السيدة زينب بنت خزيمة رضي الله عنها .

سابعاً : السيدة أم سلمة (هند بنت أَبي أمية المخزومية رضي الله عنها .

ثامناً : السيدة أم حبيبة (رملة بنت أَبي سفيان) رضي الله عنها .

تاسعاً : السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها.

عاشرًا : السيدة جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.

وأخيراً : السيدة صفية بنت حُيَّي بن أَخطب رضي الله عنها .

١ — « السيدة خديجة بنت خويلد »

هي أَول أَزواجه عليه السلام ، تزوجها الرسول الكريم

قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وهي ثيب (أَرملة) بنت أَربعين سنة ، وقد كانت عند (أَبي هالة) بن زرارة أَولًا ، ثمَّ خلف عليها بعد أَبي هالة (عتيق بن عائذ) ثم خلف عليها رسول الله ﷺ كما في الإصابة ، وقد اختارها صلوات الله عليه لسداد رأْيها ووفرة ذكائها ، وكان زواجه بها زواجاً حكيماً موفقاً لأَنه كان زواج العقل للعقل ، ولم يكن فارق السن بينهما بالأَمر الذي يقف عقبة في طريق الزواج ، لأَنه لم يكن الغرض منه قضاءَ (الوطر والشهوة) وإنما كان هدفاً إنسانياً سامياً ، فمحمد رسول الله قد هيأَه الله لحمل الرسالة ، وتحمل أَعباءِ الدعوة ، وقد يسّر الله تعالى له هذه المرأَة التقيّة النقيّة ، العاقلة الذكية ، لتعينه على المضي في تبليغ الدعوة ، ونشر الرسالة ، وهي أَول من آمن به من النساءِ .

ومما يشهد لقوة عقلها ، وسداد رأْيها ، أَن الرسول

عليه السلام حين جاءه جبريل وهو في غار حراء رجع إلى زوجه يرجف فؤاده ، فدخل عليها وهو يقول : زملوني زملوني ، حتى ذهب عنه الروع ، فحدّث خديجة بالخبر وقال لها : لقد خشيتُ على نفسي ، فقالت له : (أبشر ، كلا والله ما يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ..) والحديث في الصحيحين .

قضى الرسول مع خديجة زهرة شبابه ، فلم يتزوج عليها ، ولا أحبّ أحدًا مثل حبه لها ، وكانت السيدة عائشة تغار منها مع أنها لم تجتمع معها ولم ترها ، حتى تجرأت مرة عليه عند ذكره ﷺ لها فقالت :

«وهل كانت إلا عجوزًا في غابر الأزمان ، قد أبدلك الله خيرًا منها ؟ - تعني نفسها » فغضب ﷺ من هذه الكلمة وقال لها : لا والله ما أبدلني الله خيرًا

منها .. لقد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذحرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساءِ » قالت: فلم أذكرها بسوءٍ بعده أبدًا.

وروى الشيخان عنها أنها قالت:

« ما غرت على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبي يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يبعثها في صدائق خديجة، وربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد ».

عاشت مع الرسول خمساً وعشرين سنة، خمس عشرة قبل البعثة، وعشرًا بعدها، ولم يتزوج الرسول الكريم امرأة عليها، ورزق منها جميع أولاده ما عدا إبراهيم وحين انتقلت إلى رحمة الله راضية مرضية كان الرسول ﷺ قد بلغ الخمسين من العمر، وليس عنده سواها،

فلم يعدّد زوجاته إلا بعد وفاتها ، لبعض تلك الحكم التي ذكرناها ، رضي الله تعالى عنها وأرضاها ، وجعل الجنة مسكنها ومأواها .

٢ – « السيدة سودة بنت زمعة »

تزوجها عليه السلام بعد وفاة خديجة ، وهي أرملة (السكران بن عمرو الأنصاري) .. والحكمة في اختيارها مع أنها أكبر سناً من رسول الله ، أنها كانت من المؤمنات المهاجرات ، توفي عنها زوجها بعد الرجوع من هجرة الحبشة الثانية ، فأصبحت فريدة وحيدة ، لا معيل لها ولا معين ، ولو عادت إلى أهلها – بعد وفاة زوجها – لأكرهوها على الشرك ، أو عذبوها عذاباً نكرًا ، ليفتنوها عن الإسلام ، فاختار ﷺ كفالتها فتزوجها ، وهذا هو منتهى الإحسان والتكريم لها على صدق إيمانها وإخلاصها لله ولرسوله .

ولو كان غرض الرسول الشهوة – كما زعم المستشرقون الأفّاكون – لاستعاض عنها وهي الأرملة المسنة التي بلغت من العمر الخامسة والخمسين – بالنواهد الأبكار، ولكنه عليه السلام كان المثل الأعلى في الشهامة، والنجدة والمروءة، ولم يكن غرضه إلا حمايتها ورعايتها، لتبقى تحت كفالته عليه أفضل الصلاة والتسليم.

٣ – « السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق »

تزوجها عليه السلام وكانت بكرًا، وهي الوحيدة من بين نسائه الطاهرات، فلم يتزوج بكرًا غيرها، وكانت عائشة أذكى أُمهات المؤمنين وأحفظهنّ، بل كانت أعلم من أكثر الرجال، فقد كان كثير من كبار علماء الصحابة، يسألونها عن بعض الأحكام التي تشكل عليهم فتحلها لهم.

روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال:

(ما أَشكلَ علينا أَصحابَ رسول الله ﷺ حديث قط ، فسأَلنا عائشة إلّا وجدنا عندها منه علماً)

وقال أَبو الضحى عن مسروق : (رأَيت مشيخة أَصحاب رسول الله الأَكابر يسأَلونها عن الفرائض) .

وقال عروة بن الزبير : (ما رأَيتُ امرأَة أَعلم بطب ، ولا فقه ، ولا شعر من عائشة) .

ولا عجب فهذه كتب الحديث تشهد بعلمها الغزير ، وعقلها الكبير ، فلم يرو في الصحيح عن أَحد من الرجال أَكثر مما روى عنها إلا شخصان هما : أَبو هريرة ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وكان عليه السلام يحب عائشة أَكثر من بقية نسائه وكان يعدل بينهن في القسمة ويقول : اللهم هذا قسمي فيما أَملك ، فلا تؤاخذني فيما لا أَملك .

ولما نزلت آية التخيير بدأَ بعائشة فقال لها : إني

ذاكر لك أَمرًا فلا تعجلي حتى تستأْمري أَبويك ـ قالت وقد علم أَن أَبويَّ لم يكونا يأْمراني بفراقه فقرأ عليها «يا أَيها النبي قُلْ لأَزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها .. » الآية فقالت : أَو في هذا استأمر أَبوي !! فإني أَريد الله ورسوله والدار الآخرة .

ولقد كانت مصاهرة الرسول للصدّيق أَبي بكر ، أَعظم منة ومكافأَة له في هذه الحياة الدنيا ، كما كان خير وسيلة لنشر سنته المطهّرة ، وفضائله الزوجية ، وأَحكام شريعته ، ولا سيما ما يتعلق منها بالنساءِ كما بينا عند ذكر الحكمة التعليمية .

٤ ـ « السيدة حفصة بنت عمر »

تزوجها النبي ﷺ وهي أَرملة ، وكان زوجها (خنيس ابن حذافَة) الأَنصاري قد استشهد في غزوة بدر ، بعد أَن أَبلى بلاء حسناً ، فقد كان من الشجعان الأَبطال ،

الذين سجَّل لهم التاريخ أَنصع الصفحات في البطولة ، والرجولة ، والجهاد .

وقد عرضها أَبوها (عمر) رضي الله عنه على عثمان بعد وفاة زوجته (رقية) بنت الرسول ، ثمَّ تزوجها الرسول ﷺ فكان ذلك أَعظم إكرامٍ ومنَّة وإحسان لأَبيها عمر بن الخطاب .

أَخرج الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أَنَّ عمر حين تأَيمت حفصة من (خنيس ابن حذافة) ـ وكان شهد بدرًا وتوفي بالمدينة ـ لقي عثمان فقال : إن شئتَ أَنكحتك حفصة ؟ قال : سأَنظر في أَمري ، فلبث ليالي ، فقال : قد بدا لي أَن لا أَتزوج. قال عمر : فقلت لأَبي بكر إن شئتَ أَنكحتك حفصة ، فصمتَ ، فكنت عليه أَوجد مني على عثمان ، فلبث ليالي ثم خطبها النبي ﷺ فأَنكحتها إياه .

فلقيني أَبو بكر فقال : لعلك وجدت عليَّ حين

عرضتَ عليَّ حفصة ، فلم أَرجع إليك شيئاً ؟ قلت : نعم ، قال : إنه لم يمنعني أن أَرجع إليك إلَّا أَني علمت أَن النبي ﷺ ذكرها ، فلم أَكن لأُفشي سرّه ، ولو تركها لقبلتها » .

هذه هي الشهامة الحقة ، بل هذه هي الرجولة الصادقة تظهر في فعل الفاروق عمر رضي الله عنه وأَرضاه ،

فهو يريد أَن يصون عرضه ، فلا يرى في نفسه غضاضة أَن يعرض ابنته على الكُفء الصالح ، لأَن الزواج خير وسيله للمجتمع الفاضل ، فأَين نحن اليوم من جهل المسلمين بأَحكام الإسلام ، وجماله الناصع ؟ يتركون بناتهم عوانسَ حتى يأْتي الخاطب ، ذو المال الكثير ، والثراءِ الوفير ؟!

٥ — « السيدة زينب بنت خزيمة »

تزوجها عليه السلام بعد حفصة بنت عمر ، وهي

أرملة البطل المقدام شهيد الإسلام (عبيدة بن الحارث) ابن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه ، الذي استشهد في أول المبارزة في غزوة بدر . وقد كانت حين استشهاد زوجها تقوم بواجبها في إسعاف الجرحى ، وتضميد جراحهم ، ولم يشغلها استشهاد زوجها عن القيام بواجبها ، حتى كتب الله النصر للمؤمنين في أول معركة خاضوها مع المشركين . ولما علم الرسول ﷺ بصبرها وثباتها وجهادها ، وأنه لم يعد هناك من يعولها خطبها لنفسه وآواها ، وجبر خاطرها بعد أن انقطع عنها الناصر والمعين.

يقول فضيلة الشيخ (محمد محمود الصواف) في رسالته القيمة (زوجات النبي الطاهرات) بعد أن ذكر قصة استشهاد زوجها وما فيها من سمّو وعظمة :

(وكانت قد بلغت الستين من عمرها حينما تزوج بها النبي ﷺ ، ولم تعمّر عند النبي الكريم سوى عامين ، ثم توفاها الله إليه راضية مرضية . فما رأي

الخراصين بهذا الزواج الشريف ، وغايته النبيلة ؟ وهل يجدون فيه شيئاً مما يأفك الأفَّاكون ؟

أيجدون فيه أثرًا للهوى والشهوة ؟ أم هو النبل ، والعفاف ، والعظمة والرحمة ، والفضل والإحسان ، من رسول الإنسانية الأكبر ، الذي جاء رحمة للعالمين .

فليتق الله المستشرقون المغرضون ، وليؤدوا أمانة العلم ولا يخونوها ، في سبيل غايات خبيثة استشرقوا ودرسوا العلوم الإسلامية خاصة للدس ، والكيد ، والنيل من سيد الإنسانية محمد عليه السلام) .

٦ – « السيدة زينب بنت جحش »

تزوجها عليه السلام وهي ثيب وهي ابنة عمته وكان قد تزوجها (زيد بن حارثة) ثمَّ طلَّقها فتزوجها الرسول ﷺ لحكمة لا تعلوها حكمة في زواج أحدٍ من أزواجه ، وهي إبطال (بدعة التبني) كما مرَّ معنا عند ذكر

الحكمة التشريعية .

وهنا يحلو لبعض المغرضين ، الحاقدين على الإسلام وعلى نبي الإسلام ، من المستشرقين الماكرين ، وأذنابهم المارقين ، أن يتخذوا من قصة تزوج الرسول الكريم بزينب منفذًا للطعن في النبي الطاهر الزكيّ ، ويلفِّقوا الأباطيل ، بسبب بعض الروايات الإسرائيلية ، التي ذكرت في بعض كتب التفسير .

فقد زعموا ــ وبئسما زعموا ــ أن النبي عليه الصلاة والسلام مرّ ببيت زيد وهو غائب ، فرأى زينب فأحبّها ووقعت في قلبه ، فقال : سبحان مقلِّب القلوب ، فسمعت زينب ذلك فلما جاء زوجها أخبرته بما سمعت من الرسول ، فعلم أنها وقعت في نفسه ، فأتى الرسول يريد طلاقها فقال له : أمسك عليك أهلك وفي قلبه غير ذلك ، فطلَّقها زيد من أجل أن يتزوج بها الرسول .

يقول ابن العربي رحمه الله في تفسيره (أَحكام القرآن) ردًا على هذه الدعوى الأَثيمة : فأَمّا قولهم إِن النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه فباطل ، فإِنه كان معها كل وقت وموضع ، ولم يكن حينئذٍ حجاب ، فكيف ينشأ معها ، ويلحظها في كل ساعة ، ولا يقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج ، قد وهبته نفسها ، فكيف يتجدد له هوى لم يكن ، حاشا لذلك القلب المطهّر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال الله له «ولا تمدَنَّ عينيك إلى ما متعنا به أَزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » وقد تعقب رحمة الله عليه تلك الروايات الإِسرائيلية وبيّن أَنها كلها ساقطة الأَسانيد .

* * *

أيها الإخوة الأفاضل :

إن نظرة بسيطة إلى تاريخ (زينب) وظروفها في

زواج (زيد) تجعلنا نؤمن بأَنَّ سوءَ العشرة التي كانت بين زيد وزينب إنما جاءَت من اختلافهما اختلافاً بيناً في الحالة الاجتماعية .. فزينب شريفة ، وزيد كان بالأَمس عبدًا ، وقد أَراد الله امتحانها بزواج زيد لتحطيم مبدأ (العصبية القبلية) والشرف الجاهلي ، وجعلَ الإِسلامُ الشرف في (الدين والتقوى) فحين عرض الرسول على زينب الزواج من زيد امتنعت واستنكفت اعتزازًا بنسبها وشرفها فنزل قوله تعالى : « وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمِنة إِذا قضى اللهُ ورسولهُ أَمرًا أَنْ يكون لهمْ الخيرةُ من أَمرِهم ، ومن يَعصِ اللهَ ورسوله فقد ضل ضلالًا مبيناً) .

فخضعت زينب لأَمر الرسول ، وأَسلمت لزيد جسدها دون روحها فكان من وراءِ ذلك الأَلم والضيق .

ومحمد ﷺ كان يعرف زينب من الصغر ، لأَنها ابنة عمته فمن كان يمنعها منه ؟ وكيف يقدّم إنسان امرأَة لشخص وهي (بكر) حتى إذا تزوجها وصارت

(ثيباً) رغب فيها ؟!

حقاً إنهم قوم لا يعقلون، فهم يهرفون بما لا يعرفون، ويقولون على الرسول كذباً وزورًا، وبهتاناً وضلالًا .. ثم انظر إليهم وهم يقولون: إنَّ الذي أَخفاه محمد هو حبه لزينب ولهذا عوتب .. فهل يعقل مثل هذا البهتان ؟ وهل يعاتب الشخص لأَنه لم يجاهر بحبه لامرأَة جاره ؟ «سبحانك هذا بهتان عظيم» .

ثمَّ إن الآية صريحة كلَّ الصراحة، وواضحة كل الوضوح، في هذا الشأْن .. فقد ذكرت الآية الكريمة أَنَّ الله سيظهر ما أَخفاه الرسول (وتُخفي في نفسك ما الله مُبْديه) فماذا أَظهر الله تعالى ؟

هل أَظهر حبَّ الرسول أَو عشقه لزينب ؟ كلا ثم كلَّا إنما الذي أَظهره هو رغبته عليه السلام في تنفيذ أَمر الله بالزواج بها لإبطال حكم التبني، ولكنه كان

يخشى من ألسنة المنافقين أن يقولوا : تزوج محمد حليلة ابنه ، ولهذا صرّح الباري جلَّ وعلا بهذا الذي أخفاه الرسول «فلما قضى زيدٌ منها وطرًا زوّجناكَها لكيْلا يكونَ على المؤمنينَ حرجٌ في أَزواجِ أَدعيائهم .. » .

وهكذا تبطل مزاعم المفترين أمام الحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة ، التي تدل على عصمة سيد المرسلين ، وعلى نزاهته وطهارته مما ألصقه به الدسّاسون المغرضون .

٧ – « السيدة أم سلمة هند المخزومية »

تزوج الرسول الكريم بأم سلمة وهي أرملة (عبدالله ابن عبد الأَسد) وكان زوجها من السابقين الأَولين إلى الإسلام ، وهاجر إلى الحبشة ، وكانت زوجته معه خرجت فرارًا بدينها ، وولدت له (سلمة) في أثناء ذلك ، واستشهد زوجها في غزوة أحد ، فبقيت هي وأَيتامها الأَربعة بلا كفيل ولا معيل ، فلم ير عليه

السلام عزاء ولا كافلًا لها ولأولادها غير أن يتزوج بها ، ولما خطبها لنفسه اعتذرت إليه ، وقالت : « إني مسنَّة ، وإني أم أيتام ، وإني شديدة الغيرة » .

فأجابها عليه السلام وأرسل لها يقول : أمّا الأيتام فأضمُّهم إليَّ ، وأدعوا الله أن يُذْهب عن قلبك الغيْرة ، ولم يعبأ بالسن ، فتزوجها عليه السلام بعد موافقتها ، وقام على تربية أيتامها ، ووسعهم قلبه الكبير ، حتى أصبحوا لا يشعرون بفقد الأب ، إذ عوّضهم أباً أرحم من أبيهم صلوات الله وسلامه عليه .

وقد اجتمع لأم المؤمنين النسب الشريف، والبيت الكريم ، والسبق إلى الإسلام .. على أنَّ لها فضيلة أخرى هي (جودة الرأي) ويكفينا دليلًا على ذلك استشارة النبي ﷺ لها في أهم ما حزَنه وأهمَّه من أمر المسلمين ، وما أشارت به عليه ، وذلك في (صلح الحديبية) فقد تأثر المسلمون بالغ التأثر من ذلك الصلح مع المشركين ،

على ترك الحرب عشر سنين بالشروط التي قدموها ورأوا في ذلك هضماً لحقوقهم مع أنهم كانوا في أوج عظمتهم وكان من أثر هذا الاستياء ، أنهم تباطئوا عن تنفيذ أمر الرسول حين أمرهم بالحلق أو التقصير لأجل العودة إلى المدينة المنورة ، فلم يمتثل أمره أحد ، فدخل الرسول على زوجه (أم سلمة) وقال لها : هلك الناس ، أمرتهم فلم يمتثلوا ، فهوّنت عليه الأمر ، وأشارت عليه بأن يخرج إليهم ويحلق رأسه أمامهم ، وجزمت بأنهم لا يتردّدون حينذاك عن الاقتداء به ، لأنهم يعلمون أنه صار أمرًا مبرماً لا مردّ له . وكذلك كان ، فما أن خرج الرسول وأمر الحلاّق بحلق رأسه ، حتى تسابقوا إلى الاقتداء به صلوات الله عليه فحلقوا وتحلّلوا وكان ذلك بإشارة أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها وأرضاها .

٨ — « السيدة (أم حبيبة) رملة بنت أبي سفيان »

وفي سنة سبع من الهجرة تزوج الرسول الكريم

بالسيدة (أُم حبيبة) رضي الله عنها وهي أرملة (عبيد الله بن جحش) مات زوجها بأرض الحبشة ، فزوجها النجاشي للنبي ﷺ وأمهرها عنه أربعة آلاف درهم ، وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة ، وقد تقدمت الحكمة من تزوج الرسول بها فيما سبق .

٩ – « السيدة جويرية بنت الحارث »

وتزوج الرسول الكريم بالسيدة (جويرية بنت الحارث بن ضرار) سيد بني المصطلق ، وهي أرملة (مُسافع بن صفوان) الذي قتل يوم المريسيع ، وترك هذه المرأة فوقعت في الأَسر بيد المسلمين ، وكان زوجها من ألد أعداء الإسلام وأكثرهم خصومة للرسول ، وقد تقدم معنا الحكمة من تزوج الرسول الكريم بها كما تقدم الحديث عن (صفية بنت حيي بن أخطب) عند الكلام على الحكمة السياسية .

١١ – « السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية »

كان اسمها برّة فسمّاها عليه السلام (ميمونة) وهي آخر أزواجه صلوات الله عليه ، وقد قالت فيها عائشة : أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم ، وهي أرملة (أبي رهم بن عبد العزى) وقد ورد أن العباس رضي الله عنه هو الذي رغبه فيها ، ولا يخفى ما في زواجه بها من البر وحسن الصلة وإكرام عشيرتها الذين آزروا الرسول ونصروه .

● ● ●

هذه – أيها السادة – لمحة عن أمهات المؤ منين ، زوجات الرسول الطاهرات ، اللواتي أكرمهن الله بصحبة رسوله ، وجعلهن أمهات للمؤمنين ، وخاطبهن بقوله جل وعلا :

«يا نساءَ النبي لستُنَّ كأَحدٍ من النساءِ اِنِ اتقيْتُنَّ

فلا تخضَعْنَ بالقولِ فيَطْمعَ الذي في قلبِهِ مرض، وقُلنَ قولًا معروفاً ». وقد كان زواجُ الرسولِ بهِنَّ لحكم كثيرة، راعى فيها الرسول مصلحة الدين والتشريع، وقصد تأليف القلوب، فجذب إليه كبار القبائل، وكرام العشائر .

وجميع زوجات الرسول (أرامل) ما عدا السيدة عائشة، وقد عدّد الرسول زوجاته بعد الهجرة، في السنة التي بدأت فيها الحروب بين المسلمين والمشركين، وكثر فيها القتل والقتال، وهي من السنة الثانية للهجرة إلى السنة الثامنة التي تمَّ فيها النصر للمسلمين، وفي كل زواج ظهر لنا الدليل الساطع على نبل الرسول، وشهامته، وسموّ غرضه، وجميل إحسانه، خلافاً لما يقوله الأفّاكون الدسّاسون فلو كان للهوى سلطان على قلب النبي لتزوج في حال الشباب، ولتزوج الأبكار، ولكنه الحقد الأسود الذي ملأ قلوب أولئك المستشرقين الغربيين فأعماهم

عن رؤية ضياء الحق الساطع ، وصدق الله «بل نقذِف بالحق على الباطلِ فيدْمَغُهُ فإذا هو زَاهق» .

تمت بعونه تعالى وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مكة المكرمة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية